المقدمة

*** قال أفلاطون في «الجمهورية»[1]:**

«الآن: دعني أُريك إلى أي مدى قد تكون طبائعنا مستنيرة أو مظلمة:

إنَّ مجموعة من البشر يعيشون منذ نعومة أظفارهم في كهف تحت الأرض، مُكبَّلُون من أرجلهم، فلا يستطيعون القيام، وُضعت أغلال في رقابهم، فلا يستطيعون النظر خلفهم ولا الالتفات، ويُوجد خلفهم مِنصَّة عالية عليها نار خافتة هي مصدر الضوء الوحيد لهم في الكهف، ويُوجد من أمام المساجين حائط يعكس الظِّلال التي تمرُّ من أمام النار تُشبه الحاجز الذي يعرض عليه لاعبي الماريونت الدُّمى، وبينما المساجين على وضعهم هذا يقوم الحُرَّاس بالمرور أمام النار وهم يحملون تماثيل ونماذج خشبيَّة على هيئة الحيوانات وأشياء أخرى، فيرى المساجين ظِلال

(١) «الجمهورية»، أفلاطون، الكتاب السابع ص(٣٢٠ ـ ٣٢٣).

هذه الأشياء على الحائط، وبينما الحراس يحملون التماثيل بعضهم يتكلم وبعضهم يلتزم الصمت.

إنَّها حقّاً صورةٌ غريبة، ومساجين غرباء!

إنَّهم سُجناء مثلنا، هل تعتقد أنَّ أحداً منهم قد رأى أيَّ شيءٍ عن نفسه، أو عن الآخر ما عدا الظِّلال التي تُظهرها النار على الحائط أمامهم؟!

كيف يُمكنهم فعل ذلك، إذا لـم يُسمح لهم خلال حياتهم كُلِّها أن يُحرِّكوا رؤوسهم؟!

وإذا كانوا قادرين على محادثة بعضهم البعض، ألن يفترضوا أنَّ الأشياء التي رأوها هي الأشياء الحقيقيَّة؟!

وافترض أنَّهم لو سمعوا صدى الصوت الموجود في الكهف من أحد الـمارَّة، ألن يكونوا متأكدين في توهُّمِهم أنَّ الصوت الذي سمعوه أتى من الظِّل الذي يرونه على الحائط؟

فبالنسبة لهم ستكون الحقيقة حرفيّاً لا شيء سوى الظِّلال والصُّور.

ماذا يُمكن أن يحدث إذا تمَّ تحريرُ أحد هؤلاء المساجين وشفائهم من وهمهم؟

في بداية الأمر عندما يتحرَّر أحدهم ويُجبر أن يقف ويدير رقبته حوله ويمشي باتجاه النور، فإنَّه سيُعاني آلاماً حادة، سيضايقه التوهُّج، وإذا أخبره أحدٌ أنَّ هذه الأشياء التي رآها من قبلُ هي وَهْمٌ، وأنَّ التماثيل التي يراها الآن هي الأقرب **للواقع**،

فهل سيؤمن بذلك؟ بالتأكيد لا، بل سيظلُّ مُصدِّقاً أنَّ الظِّلَّ الذي كان يراه طوال عمره هو الحقيقي، وأنَّ التماثيل ليست هي الواقع، بل هي مُصطنعة!

وبما أنَّ الضوء الشديد الذي لم يَعتدْ عليه سيجعل رؤيته للأشياء الحقيقيَّة صعبة؛ فإنَّه سيظلُّ يأنسُ النظر إلى الظِّلِّ؛ لأنَّه لايزال أوضحَ من الأشياء الحقيقيَّة.

وافترض أنَّه أُرغم على الخروج من الكهف، ألن يخطف ضوء الشمس الساطع بصره، ويجعله يتألَّم، ولن يتمكَّن أن يرى أيَّ شيء على الإطلاق ممَّا يُسمى الآن حقائق؟

يبدو أنَّه سيحتاج أن يزداد تعوُّداً على المشهد الواقعي للعالم العلوي، وسيظلُّ يرى الظِّلالَ أفضل، وبعد ذلك يُمكنه رؤية انعكاسات الأشياء على سطح المياه، وعندما ينظر إلى السماء؛ فلسوف يجد أنَّ الأسهل له أن يُحدِّق في ضوء القمر والنجوم من أن يرى الشمس أو نور الشمس في وَضَحِ النهار.

وفي النهاية: سيستطيع أن يرى الشمس، ويدرك أنَّها المصدر للضوء في الكون والنار التي في الكهف، سيدرك الحقيقة والواقع، ويتأسَّف لحاله من قبلُ، وحالِ بقيَّة أفراد الكهف، الذين لازالوا يعيشون في وَهْمٍ لا عَلاقة له **بالواقع**.

في هذه اللحظة: سينزل إلى الكهف غيرَ أنَّ عينيه لم تَعُدْ تعتاد الظَّلام، فبينما يُحاول أن يرى ما في الكهف، يعتقد أصحابه أن صعوده إلى أعلى قد أثَّر على رؤيته، وبينما يُحاول أن يخبرهم

الحقيقة؛ سيسخرون منه، ولن يستطيع أن يجعلهم يدركون الحقيقة والواقع، ولو حاول لفشل في ذلك، حتى إنَّهم اعتقدوا أنَّ عقله قد فسد مثل بصره، وإذا حاول أن يحملهم على الخروج رُبَّما ثاروا عليه، بل وقد يقومون بقتله.

إن الكهف «بيت السجن» هو عالـم البصر».

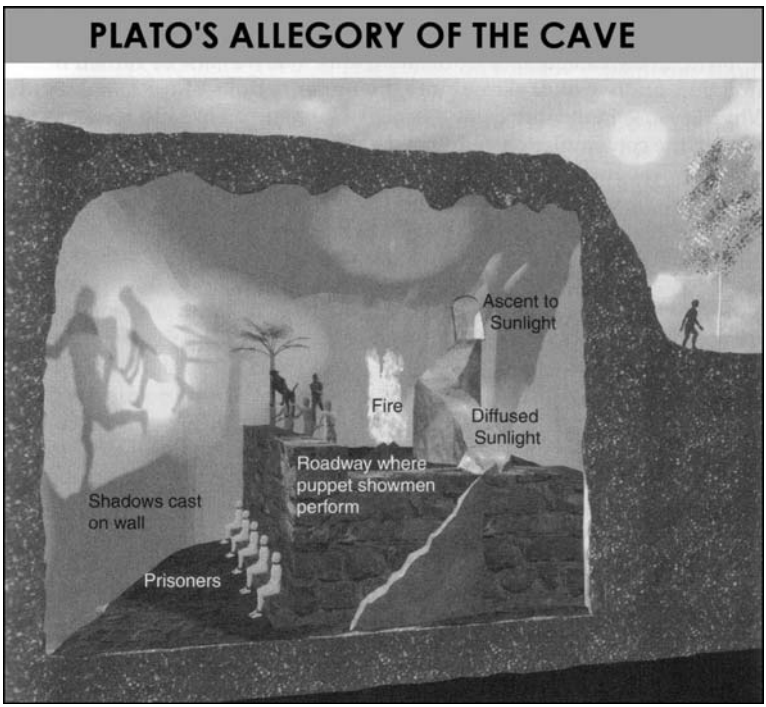

ممَّا أراده «أفلاطون» من خلال هذه القصة: أن يُوضِّح طبيعة الفرق بين المستنيرين من البشر وغيرهم، وكيف أنَّ البشر أغلب أمرهم يتهَّمون الحكماء بالجنون، والمصلحين بالكذب، وكيف أنَّ

الغالبيَّة من المجتمعات دائماً ما ترفض الحقائق التي يكون فيها صلاحهم.

والذي يظهر من هذه القصة: أنَّه ليس كلُّ ما يعرفه الإنسان قد يكون الحقيقة، أو يُمكن القول: ليس كل ما هو واقع قد يُعَدُّ حقيقة، فالحقيقة تُشير إلى الشيء الثابت يقيناً، أو ما وُضع له في الأصل.

أمَّا الواقع فيعنى: «معرفة الإنسان بالحالة التي عليها الأشياء التي تُحيط به، وتقوم بتشكيل أفكاره ومعتقداته، وبالتالي: تقوم بتشكيل رأي عند الفرد أو المجتمع»، **ومن هنا**: فالإنسان يظلُّ أسيراً للوسيلة التي يتعرَّف بها على الأشياء، فلم يكن ظهور الأشياء التي تمرُّ على الحائط في الواقع أمام المساجين دليلاً كافياً على حقيقة هذه الأشياء.

رُبَّما هذا ما دفع فِيتِنجِشتَين[1] Wittgenstein إلى مثل هذه النتيجة، وهي: أنَّنا لا يُمكن أن نتعرف على العالم الذي نعيش فيه إلَّا من خلال الكلمات التي نعرفها فقط، فالكلمات التي نملكها هى العالم الذي نعرفه.

---

(١) **لودفيج فيتجنشتاين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١)**: فيلسوف نمساوي بريطاني الجنسيَّة، يهودي الديّانة، في الحرب العالمية الأولى خدم فتجنشتين في الجيش النمساوي، وأثناء ذلك كتب كتابه: «رسالة منطقيَّة» أول عمل فلسفي له، ونشره عام (١٩٢١م)، وهو كتاب يدور حول المنطق، واللغة، والمعنى، وتأملات حول الموت. هذا الفيلسوف وزَّع معظم ثروته لأقاربه، ورفض وظيفة جامعيَّة، وعمل ناظرَ مدرسةٍ في ثلاث قرى نمساوية نائية، ثم عاد إلى فيينا، وعمل بستانيّاً لفترة في حديقة دير، ولم يستثمر أمواله الهائلة في تغيير نمط حياته الذي يحب.

Article by: *J J O'Connor and E F Robertson* Ludwig Josef Johann Wittgenstein.

يبدو أنَّ ما تُوضحه هذه القصة في المرحلة الأولى ـ مرحلة الكهف ـ يُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ حالَ البشر اليوم في عَلاقتهم بالواقع، فالناس في الحقيقة يخضعون لحواسِّهم المباشرة، فهم لا يملكون تكذيب ما تراه أعينهم، ولا ما تسمعه أذانهم من الكلمات، ولا يسعهم إلَّا وصف ذلك بالحقيقة، أو بالواقع الذي يدلُّ على الحقيقة.

أظنُّ أنَّ أحداً لو تأمَّل القصة جيِّداً سيدرك أنَّ الفرد في مجتمعاتنا يُشبه كثيراً أفراد الكهف، لا يقدر على رؤية أو سماع إلَّا ما تقوم المنظومة بعرضه، فلا تُوجد إمكانيَّةٌ للحصول على المعرفة إلَّا من خلالها، سواء من المؤسسات التعليميَّة، أو وسائل الإعلام المقروءة أو المسموعة أو المرئيَّة.

إن كان الأمر على هذه الصورة؛ فما تحاول هذه الدراسة إثباته: أنَّ المجتمع اليوم أشبه بهذه الصورة التي عليها الناس في الكهف، حيث تقوم **المنظومة** بوضع الأغلال المعرفيَّة في رقاب الناس من خلال المُؤسَّسات التعليميَّة، حيث لا يستطيعون أن يلتفتوا إلى المعرفة الحقيقيَّة، ثم تقوم باستخدام المُؤسَّسات الإعلاميَّة لعرض ظِلال الحقيقة، ولا يكون في وُسع الناس سوى تصديق ما تراه أعينهم عن الواقع ظنّاً منهم أنَّ ما يرونه هو الحقيقة.

تُشبه الظِّلالُ التي كانت تُعرض على أصحاب القصة إلى حدٍّ بعيد تلك المصطلحات التي يعرضها السياسيون ورجال الدولة

على أفراد المجتمع، كما كان يفعل الحراس بالتماثيل، فرُبَّما تكون **الديمقراطيَّة** ـ مثلاً ـ ظِلّاً له **تمثال**، فتكون الديمقراطيَّة في الظِّلِّ هي نهاية التاريخ، وأفضل نموذج قد يصل إليه البشر يوماً ما، وهي الخَلاص من الديكتاتوريَّة في الحكم، حيث يكون الحكم لأبناء الشعب، بينما الديمقراطيَّة التمثال هي صورة أخرى من الديكتاتوريَّة لحكم الأقليَّة يُقيدون من خلالها حُرِّيَّةَ الأكثريَّة من خلال فرض قوانين عبر المُؤسَّسات التي احتكرتها هذه القِلَّة باسم الديمقراطيَّة.

رُبَّما يكون هذا الطرح صحيحاً، ورُبَّما لا، ولكن للتَّأكُّد من ذلك: يجب أن يمرَّ المرءُ بكلِّ الأحوال بالمرحلة الثانية «فكِّ الأغلال»، ويُحاول أن يتلفت وينظر مِن حوله لعلَّ هناك بُعداً آخر للحقائق، فيكون عليه أن يتخلَّى عن كلِّ ما عرفه عن الواقع، وأن يبني تصوُّره الخاصَّ.

قال رامسفيلد ذلك الرجل (المجهول/ المعلوم) كلمات غاية في الأهمية: «إنَّنا كما نعرف أنَّه هناك أشياء نعرف أنَّنا نعرفها، وهناك أشياء نعرف أنَّنا نجهلها، فهناك أشياء نجهل أنَّنا نجهلها»[1].

---

(١) **دونالد رامسفيلد (١٩٢٣م)**: عمل وزيراً للدفاع في عهد الرئيس فورد (١٩٥٧ ـ ١٩٧٧م)، وعاد للوزارة مرة أخرى في عهد بوش الابن (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٦م)، كان من هواة التلاعب باللغة وباستخداماتها المتعددة، وقام بكتابات الأشعار التي تحمل الكثير من المعاني الفلسفية.

"The Rumsfeld Papers. DHR Holdings LLC. Retrieved June 21! 2011".

"There are known knowns; there are things we know that we know. There are known unknowns; that is to say, there are things that we now know we don't know. But there are also unknown unknowns - there are things we do not know we don't know".

فبالفعل ليس كلُّ ما يعرفه الإنسان يعني أنَّه لا يُوجد الكثير ممَّا لا يعرفه، والخطورة في مثل هذا الطرح أنَّ ما لا يعرفه الإنسان لا يعرف أنَّه لا يعرفه!

فعلى سبيل المثال: إنَّ للحقائق أبعاداً أخرى غير التي يعرفها الإنسان، تظهر في العالم والمجتمع، فإذا كان العقل ما يُميِّز الإنسان عن سائر الكائنات، فلماذا لا يبدو العالم الذي يعيش فيه الإنسان عقلانيّاً؟

حيث تتمثَّل اللَّاعقلانيَّة تقريباً في كلِّ ما يُحيط بالإنسان، فالمجتمع اليوم أصبح يُسمِّي الحربَ سلاماً، مثل المجازر التي يقوم بارتكابها اليهود، والتي يطلق عليها اسم «مفاوضات السلام»!

مجتمعٌ جعل من هدم الطبيعة بناءً للحضارة، حيث لا تعني الحضارة سوى بناء سجون إسمنتية عملاقة تُسمى مُدناً!

مجتمع يُطلق على الاستعباد اسم الوظيفة، حيث يقوم البشر مجتمعين بالعمل عند قِلَّة تساوي حوالي: (١٧ ٪) من سكان الأرض الذين يمتلكون (٨٠ ٪) من ثروات العالم، بينما يتبقى للـ (٨٣ ٪) الباقية ما تبقَّى من ثروات العالم[١]، ورُبَّما هذا ما يُفسِّر

(١) Social & Economic Injustice by world centric organization 2003.

لـماذا يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً، ليس ما سبق حصـراً لظاهرة اللَّاعقلانيَّة إنَّما مجرد أمثلة يسيرة.

ويبدو أنَّ الإشكاليَّة هنا ليست في لاعقلانيَّة العالـم، بل المجتمع الذي اكتسب الطابع العقلاني للَّاعقلانيَّة.

وهذا ما قد يدفع إلى سؤال آخر:

لـماذا لا يرى المجتمع أنَّ العالـم لاعقلاني؟ أو لـماذا يُضطر المجتمع إلى وصف اللَّاعقلانيَّة بالعقلانيَّة؟

قد يكون السبب في ذلك: أنَّ الإنسان لا يعرف سوى هذه الصورة فقط للمجتمع، ولا يعرف أنَّه لا يعرف أنَّ هناك صورة أخرى قد تكون للمجتمع.

رُبَّما يكون استدعاء ديكارت[1] مناسباً لفهم هذه المرحلة والإجابة عن التساؤل، عندما قال: «**ولذلك قرَّرت بكل جديَّة أن أدمِّر كلَّ أفكاري السابق**»[2] بالفعل يبدو من الضروري لمعرفة الحقيقة أن يتخلى الإنسان عن كلِّ المعاني التي عرف بها ما يُسمَّى بالحقيقة، والتي يصدق أنَّه تلقاها من خلال **المنظومة** فقط، إمَّا من مُؤسَّساتها التعليميَّة أو الإعلاميَّة.

أقصد **بالمنظومة** هنا مجموعة العناصر التي تُعرف باسم

---

(١) **رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م)**: فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ «أبي الفلسفة الحديثة». Bertrand russel The History of philosophy P.557.

(٢) **هاشم صالح، مقال: «وجاء زمن التفكيك»**، جريدة الشرق الأوسط العدد: (١٢٧٢٩).

المُؤسَّسات، حيث يرتبط كلُّ عنصر بالآخر وتُشكل بمجموعها مع بعضها البعض كُلاً واحداً يُعرف باسم الدولة، تبدو هذه **المنظومة** هي التي تتحكَّم في أغلب ما يراه الإنسان وما يسمعه أو يعرفه، ولأجل ذلك كان من المفيد أن يتمَّ تفكيكها، أي: فصل العناصر الأساسيَّة المكونة لبنيتها، أي: هيكلها الأساس، بهدف اكتشاف العَلاقة بين هذه العناصر، بالطبع هذه الدراسة لا تدَّعي ذلك، إنَّما فقط قامت بإزالة بعض الغموض عن أحد أهمِّ العناصر المكونة لبنية **المنظومة**، والذي يُعرف باسم المُؤسَّسة الإعلاميَّة وإظهار العَلاقة الموجودة بينها وبين باقي العناصر المكونة لبنية المنظومة.

ومن الممكن القول بأنَّ التفكيك يكون مُهِمّاً للبناء كما أنَّ التدمير قد يكون ضروريّاً للتعمير، ليس لأنَّ التفكيك والتدمير فعلان أصليان للبناء والتعمير، ولكن لأنَّ المساحة المطلوب البناء عليها وتعميرها يُوجد فيها بنية غير صالحة من الأفكار والمعلومات، والتي يجب أن يتمَّ تفكيكها، وهذا يُشبه المراحل الأخيرة في القصة، فصاحب الكهف بعد أن خرج منه بدأ بالتخلِّي عن الأفكار التي طالما ظنَّ أنَّها الواقع، وبدأ يتعرَّف على حقائق الأشياء وأصلها، وما وراء المظاهر المختلفة، وبعد أن تمَّ له ذلك قام بالمرور بآخر هذه المراحل، وهي الرجوع لمن لم يتعرَّفوا على الحقائق، والذين لازالت الأغلال حول رقابهم، فيخبرهم بالواقع وبالحقيقة، ويرجو ألا يقتلوه! **ويبدو أنَّه كُلَّما حاول الإنسان تصحيح المفاهيم ستبقى النتيجة أن يُقتل أو يُكذَّب.**

وهذا ما حذَّر منه جورج أورييل أنَّه[1]: كُلَّما ازداد ابتعاد المجتمع عن الحقيقة؛ كُلَّما ازدادت كراهيته لمن يتحدثون بالحقيقة.

إنَّ تحرير الناس من الأغلال التي تُفرض عليهم حقّاً أمر عسير، لا سيما إن كانوا يؤمنون بضرورة وجودها، **كما قال «فولتيير»**[2]: «إنَّه من الصعب أن تُحرِّر السُّذَّج من أغلالهم التي يبجلونها»[3].

---

(١) **إريك آرثر بلير، الاسم الحقيقي لجورج أورويل، وهو الاسم المستعار له والذي اشتهر ـ ١٧هر به (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠م)**: ، عمله كان يشتهر بالوضوح والذكاء، وخفة الدم، والتحذير من غياب، ومعارضة الحكم الشمولي.
"The George Orwell Archive! UCL library service".

(٢) **فرانسوا ماري أرويه، المعروف باسم: «فولتير Voltaire» (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م)**: كاتب فرنسي عاش في إنجلترا، وهو أيضاً كاتب، ذاع صِيته بسبب سخريته الفلسفيَّة الظريفة، ودفاعه عن خاصة.

(٣) LE DINER DU COMTE DE BOULAINVILLIERS "VOTAIRE" P.54.